SIATS Journals

The Journal of Sharia Fundamentals for Specialized Researches

(JSFSR)

Journal home page: http://www.siats.co.uk

مجلة أصول الشريعة للأبحاث التخصصية

العدد 3، المجلد1، تشرين الأول، أكتوبر 2015م.

e ISSN 2289-9073

DUBIT ALLISAN WATAEDIL MASARIH ALSAWTIU MIN KHILAL EILM ALTAJWID

ضبط اللسان وتعديل مساره الصوتي من خلال علم التجويد

كمال قدة

جامعة الشهيد حمة لخضر ولاية الوادي/ الجزائر

gueddakamel@gmail.com

1436هـ – 2015م

ARTICLE INFO

Article history:
Received 19/6/2015
Received in revised form 20/7/2015
Accepted 22/9/2015
Available online 15/10/2015

Keywords:
Insert keywords for your paper

ABSTRACT

The science of Tajweed is the midpoint between the Koranic and linguistic studies. It is recommended to the post-graduation and graduation students who are working in those two fields to have a strong interest in the art of Tajweed , in order to reform their tongues to utter both of the Holy Koran verses and the Arabic text correctly and eloquently whatever the type is , discourse (prose or poetry) , fiction or parable The research is based on three principals converging together in the uttering method of the Arabic letter. I wrote it , benefited from those who mastered this field, to contribute in preserving the letters of revelation from the sounds of intruders who don't know the rules of Tajweed , and to participate in purifying the Arabic tongue, taming it to utter correctly and eloquently and to mend its vocal path to be up to the standard of the Arabic language which is merited by Allah and his worshipers.

For this purpose , I made the following research , entitling it by "Adjusting the Tongue and Correcting its Vocal Path through through the Science of Tajweed ", with four main titles , introduction and conclusion including the important results obtained.

The titles are : the definition of the science of Tajweed and its inception, the relation between the sciences of Tajweed and recitation modes, the ranks of recitation and its effect on the uttering, the articulation of sounds and its features and effect on the voice.

الملخص

إنَّ علم التجويد هو العقد الذي يتوسط الدراسات القرآنية والدراسات اللغوية، وحريّ بطلاب الدراسات العليا وطلاب التدرج ممن يشتغلون بهذين العلمين أن تكون لهم قدم راسخة في فنّ التجويد، حتى تستقيم ألسنتهم بالنطق الصحيح الفصيح لآي الذكر الحكيم وللنص العربي مهما كان نوعه، خطابًا من نثر أو شعر، أو قصصًا أو مثلًا...

وهذا البحث ينبني على ثلاث أسس كلها تلتقي في طريقة النطق بالحرف العربي، كتبته مستفيدًا ممن أتقنوا هذا المجال لأساهم في الحفاظ على حروف الوحي من أن تطالها أصوات المتطفلين الذين لا علم لهم بقواعد التجويد ولأسهم كذلك في تنقية اللسان العربي مما شابه من دخيل الحرف والصوت، وترويضه على النطق السليم الفصيح ولأصحح مساره الصوتي كي يرقى إلى مكانة اللغة العربية وما لها من فضل ومزية عند الله وعباده، ولبلوغ ذلك طرحت هذا البحث الذي عنونته بـ " **ضبط اللسان وتعديل مساره الصوتي من خلال أحكام التجويد**".

والبحث قائم على أربعة عناوين رئيسة وتمهيد وخاتمة ضمنتها أهم النتائج المتوصل إليها، والعناوين هي:

نشأته علم التجويد وعلاقته بعلم الأصوات، الصلة بين علمي التجويد والقراءات، مراتب القراءة وأثرها في النطق، مخارج الحروف وصفاتها وأثر ذلك على الصوت.

إنّ علم التجويد توقيفيٌّ كله، لا مجال فيه للزيادة والاجتهاد، ذلك لأن الأمين جبريل عليه السلام به قد نزل، فقد قرأ جبريل الأمين قراءة علّمه الله إياها، فتلقاها منه النبي صلى الله عليه وسلم حرفًا حرفًا وكلمةً كلمةً كما سمعه، وعلّم أصحابه القرآن الكريم كما تلقاه من جبريل عليه السلام، وحثهم على قراءته كما أنزل.

إلا أنه لما انتشر الإسلام وتوسعت رقعته حتى شملت أقطارًا كثيرة لا تعرف اللغة العربية، وتكلم بالقرآن أقوام لا تستقيم ألسنتهم بحروفه، كثر اللحن و فشا الخطأ، فخاف علماء المسلمين عليه من التغيير والتحريف، فقام بعضهم بوضع أصول وقواعد تتضمن صحة النطق بالقرآن الكريم، وسموها "علم التجويد".

ولم يقم هؤلاء العلماء الفطاحلة بوضع قواعد التجويد وضعًا من هواهم أو من عند أنفسهم، بل كان غاية ما فعلوه النظر إلى ألسنة القراء المتقنين والضابطين، وهم يتلونه كما شافهوه وتلقوه منه صلى الله عليه وسلم فوضعوا للمتأخرين من بعدهم قواعد القراءة الصحيحة التي كان يقرأ بها المتقدمون، فكان عملهم أشبه ما يكون بعمل النحويين حين استمعوا إلى كلام العرب، ووضعوا قواعد اللغة العربية والإعراب.

ولا ريب أن أحكام التجويد ليست بدعًا على اللسان العربي، فقد كانت العرب تعرف ذلك، وتعهده خلال أشعارها وخطاباتها وحكمها وأمثالها، وكانت تدغم وتقلب، وتخفي، وتظهر، غير أن ذلك لم يكن على وجه منسق وحاسم، بحيث تعرفه العرب مستقلًا عن أدائهم ونطقهم، بل كانت هذه القواعد مما يزين أصل كلامهم، حتى أخذت شكلها النهائي في تلاوة القرآن الكريم، وقد أفادت قواعد التجويد هذه المحافظة على كتاب الله تعالى حتى وصل إلينا سليمًا من التحريف كما أنزل، وكانت هذه القواعد حصنًا متينًا حافظ على سلامة النطق بالقرآن الكريم.

وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى ضرورة التنويه بما كتبه المحُدَثون من علماء الدراسات الصوتية من كتابات كانت تسير جنبا إلي جنب مع قواعد التجويد تكمّلها بل وتشترك معها في الحفاظ على الوحي ولغته، ليكون هذان العلمان صمام الأمان لحروف الذكر وللسان العربي من أن تناله أيدي العابثين أو تلوكه ألسنة المغرضين حري بهذه الدراسات أن تسجل بماء الذهب وأرى أن زبدة البحوث في هذا المجال انتهت إلى ما كتبه علماء التجويد والصوتيات الكبار، أكتفي بذكر ثلاثة منهم على سبيل التمثيل لا الحصر، وإلا فهم عدد كبير لا يُعدُّ ولا يحصى: من أمثال الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين رحمه الله وتلميذه عالم الأصوات والتجويد الأستاذ الدكتور غانم قدوري الحمد حفظه الله وكذا المقرئ الجليل أستاذ القراءات الدكتور أحمد القضاة كل هؤلاء وغيرهم كانت لهم عدة إسهامات في مجال الدراسات القرآنية واللغوية.

نشأة علم التجويد وعلاقته بعلم الأصوات

1- تعريف علم التجويد :

التجويد مصدر جوَّد يجود، وهو الإتيان بالجيّدّ أو التّحسين، يُقال: هذا شيء جيّد، أي حسن، وجوّدت الشيء، أي حسّنته، ويُقال: جاد الشيء جَودة وجُودة، أي صار جيّداً، والجود: بذل المقتنيات مالاً كان أو علماً، قال أهل اللغة : " جاد الشيء يجود جودة فهو جيد، وأجاد الرجل وجوّد، وجاد جوداً فهو جواد، وقوم جود وأجواد ".(1)

والتجويد يعني بلوغ الغاية في الإتقان والضبط وحسن الأداء، أو هو تلاوة القرآن الكريم حق تلاوته أي بإعطاء كل حرف من القرآن حقّه ومستحقّه، بمقتضى أصول معهودة، والإتيان بالقراءة مجوّدة بريئة من الرّداءة في النطق، ومن ذلك جاء المعنى الاصطلاحي لتجويد القرآن، أو هو معرفة القواعد والضوابط التي وضعها علماء التجويد، وهذا القسم يسمى بالتجويد العلمي أو النظري.

([1]) أبو بكر، محمد بن الحسن الزبيدي الأندلس ت 379هـ، مختصر العين، 99/2 ط 1 سنة 1417هـ = 1996م، عالم الكتب، بيروت، تحقيق: نور حامد الشاذلي، ومحمد بن أبي بكر الرازي/ مختار الصحاح ص 49 مادة: جود، البراعم للإنتاج الثقافي.

فقد عرفه الداني(ت444هـ) بقوله:" هو إعطاء الحروف حقوقها وترتيبها مراتبها، ورد الحرف من حروف المعجم إلى مخرجه وأصله، وإلحاقه بنظيره وشكله، وإشباع لفظه، وتمكين النطق به على حال صيغته وهيئته من غير إسراف ولا تعسف ولا إفراط ولا تكلف، وليس بين التجويد وتركه إلا رياضة من تدبره بفكه". [2]

وبهذا التعريف قال ابن الجزري (ت 833 هـ) في بعض كتبه[3] وشرحه في كتابه الشهير " النشر في القراءات العشر" شرحاً مفصلاً [4] .

وقال المرعشي (ت 1150هـ): " علم يُبحث فيه عن مخارج الحروف وصفاتها، وقد يطلق على إعطاء الحروف حقوقها من المخارج ومستحقها من الصفات".[5]

هي تعاريف كثيرة إلا أنّ أكثرها تلتقي في مجموعة نقاط حددها شُرَّاح هذا الفن أُجملها في هذه العبارات " هو علم يبحث في كيفيات نطق الحروف، والعناية بمخارجها وصفاتها، وما يعرض لها من أحكام، وما يتعلق بذلك وقفاً وابتداءً ووصلاً وقطعاً، وغاية العلم به بلوغ أفضل درجات إتقان التلاوة وتحسين القراءة[6].

2) نشأته وعلاقته بعلم الأصوات :

قبل الخوض في حديث النشأة لابد أن يعلم الباحث أنّ كتب علم التجويد القديمة تكاد تكون مجهولة لدى معظم المشتغلين بالدراسات الصوتية العربية في الوقت الحاضر، بل تكاد تكون مجهولة أيضا لدى معظم المشتغلين بدراسة علوم القرآن عامة وعلم التجويد خاصة.

ولا يزال أغلب تلك الكتب مخطوطًا بعيدًا عن متناول أيدي الباحثين، لا أدّعي أن صورة هذا العلم لم تكتمل بعد، أو إن هناك أحكامًا لا تزال غائبةً عنا، بل المقصود من ذلك التصوّر الصوتي القديم لبعض القضايا التجويدية الصوتية التي فيها سَعة من اختلاف في الوصف العام، كصوت التفخيم والصوت الدقيق للتقليل والإشمام وحركات الشفاه..وغيرها، فهذه القضايا لا تزال بعض معالمها عائمة ولا سبيل لتجميد الصورة وحبسها إلا برجوع الباحثين المعاصرين إلى ما كتبه

([2]) الداني أبو عمرو، عثمان بن سعيد، ت 444 هـ، التحديد في الإتقان والتجويد ص 70، ط 1، مطبعة الخلود، سنة 1407هـ- 1988 م، تحقيق : غانم قدوري حمد.

([3]) ابن الجزري، شمس الدين محمد بن محمد بن علي الدمشقي ت 833هـ، التمهيد في علم التمهيد، ص 59 ط1 سنة 1406هـ = 1986م مؤسسة الرسالة، تحقيق: غانم قدوري حمد، والنشر في القراءات العشر، 212/1 دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

([4]) النشر/ المرجع السابق، 210- 215

([5]) المرعشي، محمد بن أبي بكر، ت 1150هـ، جهد المقل ص 83 رسالة دكتوراه غير منشورة، تحقيق: سالم قدوري حمد.

([6]) الدكتور أحمد القضاة، مجلة الزرقاء للبحوث والدراسات الإنسانية التابعة لجامعة الزرقاء بالأردن المجلد الثاني العدد الأول ربيع الأول 1421هـ مقال بعنوان "علم التجويد وأثره في تقويم اللسان وتصحيح النطق" ص38.

الأوائل والاستفادة من المادة الصوتية التي تضمنتها كتبهم فهم أقرب منا إلى التصور الحقيقي لصوت الحرف الذي كان يُتلى بحكم أشواط الزمن القصيرة التي تفصل بينهم وبين خير القرون.

ويبدو أن الرسائل المتأخرة الموجزة التي كتبها المتأخرون وبعض المعاصرين في علم التجويد كانت من بين الأسباب التي ألهت الدارسين عن تتبع كتب علم التجويد القديمة ودراستها وشرحها والاستفادة منها والاعتماد عليها، وذلك لغلبة الإيجاز المخل على تلك الرسائل مما أدى إلى غموض كثير من العبارات أحيانًا.

ومع ذلك يرى كثير من أساتذة هذا الفن وعلى رأسهم الإمام ابن الجزري عليه رحمه الله أن علم التجويد قديم جداً، بلّغه الرسول صلى الله عليه وسلم وبيّنه في تلاوته على أصحابه الكرام، ودعوته إياهم إلى قراءته على الهيئة التي نزل عليها، وإلى هذا يشير قوله صلى الله عليه وسلم: « من أحب أن يقرأ القرآن غضاً كما أنزل فليقرأ قراءة ابن أم عبد » [7] يعني عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وكان قد أعطي حظاً وافراً في إتقان القراءة وضبط معالمها وحسن الصوت بالقرآن وتجويده وتحقيقه وترتيله كما أنزله الله تعالى.

ومما تجدر الإشارة إليه أن علم التجويد لم يظهر مستقلاً بمسائله وحدوده ومعالمه كعلم يضاهي باقي العلوم الأخرى كعلم مصطلح الحديث مثلًا إلا في وقتٍ متأخر، حيث بدأت معالم هذا العلم تتضح في حدود القرن الرابع الهجري[8].

وتشير فهارس المخطوطات وعناوينها الكثيرة والمنتشرة في خزائنها عبر نقاط واسعة من العالم العربي والإسلامي إلى وجود عدد من الرسائل في علم التجويد، أقدمها رسالة في الإدغام الكبير لأبي عمرو بن العلاء البصري(ت 154هـ)[9] ثم أرجوزة حول تلاوة القرآن لقالون المدني (ت 220 هـ) [10]

وكان علم التجويد يُدرس قبل ذلك مع القرآن مشافهةً، دون الوقوف على فروعه وقوفًا مفصولا عن منطوق القرآن الكريم، بل كان الطالب يتلقاه صوتا مُسَلَّمًا به دون التطرق إلى تفاصيله إلا إذا دعت الضرورة الملحة إليه كأن يكون المتلقي أعجميًا مثلا، ربما شرح له الشيخ قاعدة كتوضيح مخرج أو إشارة إلى صفة بحركة شفاه ونحوها، فيتلقى التلميذ القرآن من شيخه ويقرؤه عليه مرة بعد مرة إلى أن يتقن القراءة ويضبط أداءها.

([7]) النشر 212/1، والحديث رواه أبو عبيد في فضائل القرآن، ص 225 برقم (3.57).

([8]) حمد: غانم قدوري، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ص 15 مطبعة الخلود، بغداد سنة 1406هـ 1986م.

([9]) مؤسسة آل البيت، الفهرس الشامل للتراث العربي والإسلامي المخطوط، مخطوطات التجويد – القرن الثاني الهجري

([10]) ينظر المرجع السابق نفسه والأرجوزة هي الجوهر المكنون في رواية قالون وكتاب الإدغام الكبير طبع عدة طبعات آخرها طبعة عالم الكتب ببيروت تحقيق د.زهير غازي زاهد .

فعلم التجويد يتصل اتصالًا وثيقًا بالنص القرآني من حيث كون الكلمات القرآنية هي الأرض التي تطبق عليها قواعد هذا العلم، وقد درج العلماء على حصر تطبيق هذه القواعد في الكلمات القرآنية رغبة في أدائها وترتيلها بدرجة عالية جدًّا من الضبط والإتقان، وكانت طريقتهم في ذلك التلقي مشافهةً، بأن ينظر التلميذ إلى شفتي شيخه وهو يلقنه الحروف، وكذا التمرُّس بالرياضة الفكية حتى يصبح الأداء سجيةً وطبعاً وملكة، ثم الاحتياط لذلك بتلقي القواعد النظرية التي تتكفل بحراسة سلامة النطق من أن يطرأ عليه خلل أو نسيان فيفوت منه شيء.

ومرحلة تلقي القواعد النظرية متأخرة عن مرحلة التلقي والمشافهة، ويبدو أن أهم أسباب هذا التأخير كون علماء العربية يضطلعون بدور كبير في تعليم الناس طرائق النطق الصحيح وبيان قواعده، دون أن يخصصوا لذلك كتباً أو بحوثاً مستقلة، فكان أكثر المباحث التجويدية يُبحث من الوجهة اللغوية، ومخارج الحروف وصفاتها هما العنصران اللذان يشكلان أساس علم التجويد[11].

ولا يخفى على المشتغل بعلم اللغة أن جهود الخليل بن أحمد (ت 170 هـ) وسيبويه (ت 180 هـ) والمبرد (ت 285 هـ) وغيرهم هي البدايات الأولى واللبنات الأساسية التي استند إليها الباحثون في التجويد فيما بعد، فطوّروها ووسعوها وأضافوا إليها وتصرفوا فيها حتى أضحت تشكل مباحث علم مستقل هو علم الأداء القرآني الذي عُرف فيما بعد بعلم التجويد.

ومن الجهود التي تستحق الثناء والاعتراف بالجميل، ما قام به الخليل بن أحمد من وصف الجهاز الصوتي وتقسيمه إلى مناطق ومدارج، وهذا الرجوع إلى مصدر إنتاج الصوت اللغوي يعد إدراكًا مبكرًا لطبيعية هذا الصوت، كما أن الالتفات إلى بداية إخراج الصوت اللغوي ونهايته في هذا الجهاز، يعكس ملمحًا شموليا في فكر الخليل اللغوي بعامة، وبحثه الصوتي بخاصة، فهو يحصر كل الأصوات انطلاقا من أعمقها مخرجًا إلى آخرها مخرجًا، وهو يرى أن معجمه هذا من أهم الدراسات الصوتية، وخاصة مقدمته التي تَنمُّ عن حسّ لغوي دقيق، فلقد أحسّ الخليل بكثير من جوانب المشكلة الصوتية، إذ تحدث عن مخارج الحروف وصفاتها من همس وجهر وشدة ورخاوة ونحوها، وعما يحدث للصوت في بنية الكلمة من تغيير يفضي إلى القلب أو الحذف أو الإعلال أو الإبدال أو الإدغام، وذكر عدداً من القوانين الصوتية، وعدداً من المسائل الصوتية واللهجية والقراءات، وهو عمل له قيمته عند تحليل الظواهر اللغوية والتعرف على السلاسل

[11]) مقال الدكتور القضاة، ص39.

الصوتية الأكثر دورانًا، والأقل ترددًا، وكذلك الأصوات التي يمكن أن تتبادل فيما بينها في بنية الكلمة، كحروف العلة أو أصوات الحلق أو غيرها.

وقد سار في كتابه العين على الترتيب الصوتي، بعد أن انتقد ترتيب الحروف وفق الأشباه والنظائر الذي لا ينبني عليه عمل وأكد رحمه الله أن اللغة قومها النطق والأداء، فخرج على الدنيا بترتيبه الصوتي الكبير، وهذا المبدأ كان المنطلق الحقيقي للدراسات الصوتية في اللغة العربية، فقد نجح علماء العربية بعد الخليل نجاحاً كبيراً، فأخذ عنه سيبويه فكرة الترتيب الصوتي وطورها، وخالفه في كثير من جزئيات هذا الترتيب كما في موقفه من الهمزة حيث جعلها أول الأصوات العربية وأبعدها مخرجاً، وقال بأنها حرف لا يستقر على قرار، وقد أثبت البحث الصوتي الحديث صحة ما ذهب إليه سيبويه، فالهمزة هي أول الأصوات العربية مخرجاً فهي من فتحة المزمار[12]، والوتران الصوتيان عند النطق بها لا يوصفان بالاهتزاز ولا بعدمه.

والمطّلع على كتاب سيبويه يراه قد أدرج فصولا مهمة للحديث عن علم الأصوات، مسجلا فيها آراءه الصوتية حول مخارج الحروف، وما يطرأ عليها من تغيرات تناسب كل حرف على حدة، محددًا لكل صوت ما يناسبه من اصطلاح، وغيّر من تصنيف الخليل للأصوات إلى مجموعات بحسب قربها أو بعدها في المخارج، وهذا التغيير الذي أحدثه سيبويه لا يعدو أن يكون تصورًا عامًّا لأصوات الحروف بعد سماعها الجيد والدقيق ومحاولة التقرب من المخرج الحقيقي لكل حرف ومعرف صفته، ونقل عنه كثيراً من المصطلحات والعبارات الصوتية، وكان هذا التطوير هو الأساس لعلماء العربية في مجال الأصوات.

ولئن كان الخليل مكتشف علم الأصوات وسيبويه مطوره فإن ابن جني (ت 392هـ) هو أول من جعل الأصوات علمًا مستقلًا وأطلق عليه هذا اللفظ الواضح الصريح قبل الغربيين بقرون[13]، وهو من قدَّم تفصيلات وتفريعات، ووضع مناهج وتحليلاً للأصوات ساعدت على اكتمال نضج الدراسات الصوتية عند اللغويين في القرن الرابع الهجري، وذلك من خلال كتابه " سرُّ صناعة الأعراب" وأبرز مباحث الدراسات الصوتية في كتابه هذا:

أ) عدد حروف المعجم وترتيبها وذوقها.

([12]) فتحة المزمار: هي الفراغ الكائن بين الوترين الصوتين الممتدين بالحنجرة أفقياً من الخلف إلى الأمام حيث يلتقيان عند البروز الناتيء في منتصف الرقبة من أمام، الدراسات الصوتية، ص 126.

([13]) على الرغم مما توصلوا إليه من اختراع أجهزة صوتية دقيقة، تعطي وصفا تحليلياً للكلام أو المنطوقات من نواح عدة، كقياس الزمن والتردد والشدة والطاقة..

ب) وصف مخارج الحروف وصفاً تشريحياً[14] دقيقاً.

ج) بيان الصفات العامة للحروف العربية وتقسيمها إلى أقسام مختلفة.

د) ما يعرض للصوت في بنية الكلمة من تغير يؤدي إلى الإعلال أو الإبدال أو الإدغام أو النقل أو الحذف.

هـ) نظرية الفصاحة في اللفظ المفرد كيف أنها راجعة إلى اللفظ من أصوات متباعدة المخارج.

وهكذا تبين أن الذي وضع البذرة الأولى في مجال الدراسات الصوتية هو الخليل بن أحمد الفراهيدي، وتعهدها بالرعاية والعناية والسقاية العلمية تلميذه سيبويه، ثم نضجت وحان قطافها لتستقل بمسماها على يد ابن جني في القرن الرابع الهجري [15].

وبقيت هذه الدراسات النظرية لعلم الأصوات كتابًا مفتوحًا قابلًا للنقد والتغيير والتبديل إلى أن جاء علم التشريح البيولوجي الذي استطاع أن يفصل في كثير من القضايا المتأرجحة والمتعلقة بالصوتيات كالفصل في ترتيب الصوتي لبعض الحروف التي تنازع فيها العلماء الأقدمون، وتجدر الإشارة هنا إلى أن أقدم كتاب وصل إلينا من كتب القراءات هو كتاب (السبعة في القراءات) لأبي بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد البغدادي (ت324هـ) الذي حققه الدكتور شوقي ضيف، ولا نجد في هذا الكتاب أبوابًا مستقلة تعالج موضوع الأصوات العربية، وإنما جاءت الملاحظات الصوتية متناثرة في ثناياه..

وقد أحصى الأستاذ الدكتور غانم قدوري الحمد في كتابه" :الدراسات الصوتية عند علماء التجويد "ما يزيد على مائة كتاب ورسالة في علم التجويد، منها ما هو مخطوط، ومنها ما هو مطبوع، ورتبها من بداية التأليف حتى أواخر القرن الثالث عشر الهجري بحسب وفاة مؤلفيها[16].

وخلاصة القول: إن هذه الدراسات الصوتية كان لها أثر واضح في مسيرة علم التجويد وذلك على مستوى وصف القواعد النظرية وبيانها، لتكون هذه الأخيرة ضمانةً للنطق السليم بالكلمات القرآنية، مما يعني أن الدراسات الصوتية أسهمت

([14]) أي وصفا وتصورا بدائيا مبنيا على دقة السماع.

([15]) أبو سكين، عبد الحميد محمد، دراسات في التجويد والأصوات اللغوية، ص 14، 11، مطبعة الأمانة– مصر سنة 1404هـ - 1983م.

([16]) لمن أراد مزيد علم في جانب الدراسات القرآنية والصوتية يقرأ للفطاحل الكبار من أمثال الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين رحمه الله، له إسهامات كثيرة في المجال اللغوي والقرآني ولعل أشهر ما يلخص انجازاته العلمية كتابه الشهير "أثر القراءات في =الأصوات والنحو العربي أبو عمرو بن العلاء" أما الأستاذ الدكتور غانم قدوري الحمد فكتابه " الدراسات الصوتية عند علماء التجويد" يغني عن التعريف به أما الأستاذ الدكتور أحمد القضاة فله بحث رصين في هذا المجال كتبه بطريقة حسنة بديعة اعتنى على تذليل كثير من الصعوبات، والبحث " علم التجويد وأثره في تقويم اللسان وتصحيح النطق" موجود في مجلة الزرقاء للبحوث والدراسات الإنسانية التابعة لجامعة الزرقاء بالأردن العدد الأول ربيع الأول 1421.

إلى درجة كبيرة في خدمة علم التجويد، وتأصيل قواعده ومباحثه، وليس من غرض هذا البحث التفصيل في هذه القضية[17].

الصلة بين علم التجويد وعلم القراءات

يلتقي علم التجويد وعلم القراءات في مسائل وينفرد كل منهما عن الآخر في مسائل:

1-أن كليهما يرتبط بألفاظ القرآن من جهة يختلف فيها عن الآخر.

2-أن القراءات القرآنية المعزوَّة إلى ناقليها من السَّادة القُرّاء لا يمكن قراءتها بعيدة ومنفكةً عن الكيفية المجوَّدة التي أُنزِل القرآن الكريم بها, بمعنى أن الأوجه المنقولة نُقِلَتْ مجوَّدةً.

3-أن علم التجويد وفن القراءة والأداء يُعَدُّ جزءً لا يتجزأ من علم القراءات على اعتبار أن هذا الأخير ينقسم إلى قسمين: أصول, وفرش، وأن علم التجويد في كثير من فصوله يبحث الأصول التي تُنسب إلى القُرَّاء.

4-لا يمكن أن تعد الكتب التي ألفها القرّاء في وصف القراءات القرآنية بدءً للتأليف في علم التجويد، لأن علم القراءة وعلم التجويد، وإن كان كل منهما يرتبط بألفاظ القرآن، يختلفان في الموضوع كما يختلفان في المنهج.

5-من حيث الموضوع : يعتني علم التجويد بدراسة حقائق الأصوات وأصولها والبحث في مخارج حروفها وصفاتها، أما علم القراءات فيعتني بوجوه النطق المروية المسندة إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

6-من حيث المنهج : تعتمد كتب القراءات على الرواية، فهي تبحث عن الإسناد في القراءة وتحاول دوما ربط الكلمة صوتًا ورسمًا بالراوي الذي نُقل عنه حتى تنتهي إلى النبي صلى الله عليه وسلم، بينما تعتمد كتب التجويد على الدراية المبنية على المشافهة ورياضة الألسن[18] وقد أشار العلماء السابقون إلى الفرق بين العِلمين، وفي هذا يقول مكي بن أبي طالب (ت 437 هـ):

"علم القراءات علم يُعرف فيه اختلاف أئمة الأمصار في نظم القرآن في نفس حروفه أو في صفاتها، فإذا ذكر فيه شيء من ماهية صفات الحروف فهو تتميم، إذ لا يتعلق الغرض به، وأما علم التجويد فالغرض منه معرفة ماهيات صفات الحروف، فإذا ذكر فيه شيء من اختلاف الأئمة فهو تتميم"[19].

([17]) أحمد القضاة، مجلة الزرقاء ص 40.

([18]) حمد، غانم قدوي، علم التجويد دراسة صوتية ميسرة، ص 14، 11 مطبعة أسعد – بغداد. ط1 سنة 1408 هـ = 1988م. والدراسات الصوتية، ص 71.

([19]) القيسي، مكي بن أبي طالب، الرعاية لتجويد القراءات وتحقيق لفظ التلاوة، ص 51 و52 تحقيق: أحمد حسن فرحات. دمشق سنة 1393هـ = 1973 م.

من هنا يمكن القول إن بدء التأليف في علم القراءات لا يمثل بدء التأليف في علم التجويد، فكل من العلمين له خصائصه وموضوعه ومنهجه ومميزاته الخاصة به[20].

والصلة بين علمي التجويد والقراءات تبرز أن علم التجويد هو أحد العلوم السبعة التي هي وسائل لعلم القراءات، وهذه العلوم هي: علم العربية، التجويد، الرسم، الضبط، الوقف والابتداء، الفواصل: عَدُّ الآي، علم البدء والختم، وهو الاستعاذة والبسملة والتكبير ومتعلقاتها .[21]

وبهذا يتبين أن العلمين يجتمعان في أنَّ ميدانهما واحدٌ هو قراءة القرآن الكريم، وبينهما عموم وخصوص وعلم التجويد أخصُّ من علم القراءات.

خلاصة القول

أنّ تأخر ظهور التأليف في علم التجويد لا يعني أن القراء كانوا ينطقون القرآن قبل ذلك على غير أصل واضح، كما لا يعني أن علماء التجويد اختلقوا هذه الأصول أو ابتدعوها، فالواقع هو أن قراء القرآن كانوا يُعْنَونَ غاية الاعتناء بتجويد الألفاظ وإعطاء الحروف حقها منذ عصر الصحابة وهلم جرا حتى عصر ظهور المؤلفات في علم التجويد، وكانوا يستندون في ذلك إلى الرواية الأكيدة والأصول المرعية عند العرب في نطق لغتهم.

فأصول علم التجويد و قواعده إذن كانت موجودة في الكلام العربي، يحرص عليها القراء ويعتمدون عليها في قراءتهم وإقرائهم، وإن لم تكن مدونة، شأنها في ذلك شأن قواعد النحو والصرف التي استنبطها علماء العربية في وقت لاحق، فعلم التجويد الذي يدرس النظام الصوتي للغة، كان موضوعه تحليل ذلك النظام واستخلاص ظواهره ووضعها في قواعد تساعد المتعلم على ضبطها وإتقانها حين يستخدم اللغة، وهم في ذلك يسيرون على خطى علماء العربية الذين سبقوهم في هذا الميدان.[22]

مراتب التلاوة وأثرها في تقويم النطق

لتلاوة القرآن الكريم ثلاث مراتب، وتقسَّم مراتب التلاوة بالنظر إلى سرعة الأداء وبطئه إلى ثلاث مراتب وهنَّ:

أ. التحقيق ب. الحدر ج. التدوير .

([20]) أحمد القضاة، مجلة الزرقاء ص 41.

([21]) الصفا قسي، ولي الله سيدي على النوري (ت 1118 هـ) غيث النفع في القراءات السبع، ص 22، 21، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط3 سنة 1373هـ = 1954م. بهامش كتاب: سراج القارىء المبتدىء .

([22]) الحمد، غانم قدوري، الدراسات الصوتية، ص22.

وفيما يأتي بيان كل مرتبة منها:

أ) التحقيق:

لغة : هو المبالغة في الإتيان بالشيء على حقه من غير زيادة ولا نقصان، وهو كذلك بلوغ حقيقة الشيء والوقوف على ماهيته، وقد عرفه الداني بقوله:" التحقيق مصدر حققت الشيء، أي عرفته يقيناً، والعرب تقول: بلغت حقيقة هذا الأمر، أي بلغت يقين شأنه، والاسم منه الحق، فمعناه أن يؤتى بالشيء على حقه من غير زيادة فيه ولا نقصان منه".[23]

وعرفه علماء التجويد بأنه الإتيان بالقراءة محققة في أعلى درجات الإتقان والتأني، أو هو إعطاء الحروف حقها من إشباع المد وتحقيق الهمز وإتمام الحركات وتوفية الغنات وتفكيك الحروف وهو بيانها، وإخراج بعضها من بعض بالسكت والتؤدة، والوقف على الوقوف الجائزة والإتيان بالإظهار والإدغام على وجهوه.

وزاد ابن الجزري مبينًا موضعه بدقة بأنه إنما يكون: " لرياضة الألسن، وترقيق الألفاظ الغليظة، وإقامة القراءة، وإعطاء كل حرف حقه ".[24]

والأحاديث الدالة على قراءة التحقيق كثيرة منها ما رواه مالك عن حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: « مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى فِي سُبْحَتِهِ قَاعِدًا حَتَّى كَانَ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِعَامٍ، فَكَانَ يُصَلِّي فِي سُبْحَتِهِ قَاعِدًا، وَكَانَ يَقْرَأُ بِالسُّورَةِ فَيُرَتِّلُهَا حَتَّى تَكُونَ أَطْوَلَ مِنْ أَطْوَلَ مِنْهَا» [25].

وروى النسائي بإسناده عن يعلى بن مملك أنه سأل أم سلمة عن قراءة رسول الله ﷺ فقالت: « مَا لَكُمْ وَصَلَاتَهُ، كَانَ يُصَلِّي ثُمَّ يَنَامُ قَدْرَ مَا صَلَّى، ثُمَّ يُصَلِّي قَدْرَ مَا نَامَ، ثُمَّ يَنَام،

ثُمّ نَعَتَتْ قِرَاءَتَهُ، فَإِذَا هِيَ تَنْعَتُ قِرَاءَةً مُفَسّرَةً حَرْفاً حَرْفاً » [26].

وروى البخاري « سُئِلَ أَنَسٌ كَيْفَ كَانَ قِرَاءَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ كَانَتْ مَدًّا ثُمَّ قَرَأَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَمُدُّ بِبِسْمِ اللَّهِ وَيَمُدُّ بِالرَّحْمَنِ وَيَمُدُّ بِالرَّحِيمِ » [27].

([23]) الداني، التحديد، ص 72.

([24]) ابن الجزري، التمهيد، ص 61.

([25]) مالك بن أنس، الموطأ. رواية يحيى بن يحيى الليثي، ص 98، رقم الحديث 306، دار النفائس، بيروت ط6 سنة 1402هـ = 1982 م.

([26]) النسائي، أحمد بن علي شعيب، ت 304هـ، سنن النسائي، 181/2 دار الريان للتراث، القاهرة.

قال الترمذي حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث ليث بن سعد عن ابن أبي مليكة عن يعلى بن مملك عن أم سلمة.

([27]) البخاري، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم ت 256هـ، الجامع الصحيح 112/6 كتاب فضائل القرآن.

وقد ثبتت قراءة التحقيق بالأسانيد الصحيحة المتصلة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي هذا يقول أبو عمرو الداني:

"فأما ما يذهب إليه بعض أهل الغباوة من أهل الأداء من الإفراط في التمطيط، والتعسف في التفكيك والإسراف في إشباع الحركات.. إلى غير ذلك من الألفاظ المستبشعة والمذاهب المكروهة، فخارج عن مذاهب الأئمة، وجمهور سلف الأمة "[28].

لكن هذا التحفظ الذي نبه عليه العلماء لا يمنع من إلزام الطلبة بالقراءة المحققة المتقنة التي فيها تكلف وشدة وصعوبة حتى يتعلموا ويتقنوا، بل كان هذا منهجاً لدى كثير من العلماء، يأخذون به طلبتهم، ويشددون عليهم فيه، وهذه بعض النصوص التي تشهد لذلك:

قال قتيبة بن مهران (ت 201 هـ): "كان الكسائي صاحب همز شديد وتحقيق للقراءة "[29] .

ويظهر ذلك جليًّا عند من عُرفوا بالتشدّد حال الإقراء ومنح الإجازة، جاء في ترجمة الحسين بن على بن محمد، أبو العباس الحلبي المتوفى سنة (380 هـ)، قال ابن الجزري: " روى عنه الداني أنّه قال: لم يمنعني من أن أقرأ على أبي طاهر إلاّ أنّه كان قطيعاً [30] وكان يجلس للإقراء وبين يديه مفاتيح، فكان ربما ضرب رأس القارئ إذا لحن فخفتُ ذلك، فلم أقرأ عليه، وسمعت منه كتبه".[31]

فاهتمام علماء التجويد منذ وقتٍ مبكر بإتقان نطق الحروف وتحقيقها، والتشديد على تلامذتهم فيها حتى يكون نطقهم بها صحيحاً بيّن المعالم التي رسمها علم التجويد في اللسان حتى يستقيم النطق ويزدان جرس حروفه، يوضح إلى درجة كبيرة أثر علم التجويد في تقويم النطق، فمن جهةٍ اعتنوا بنطق الحروف بطريقة سليمة محققة [32] كما يوضح النص السابق عن أبي عمرو الداني: " أن توفى الحروف حقوقها من المد إن كانت ممدودة، ومن الهمز إن كانت مهموزة، ومن التشديد إن كانت مشددة .."

([28]) الداني، التحديد / 89.

(29) جامع البيان في القراءات السبع لأبي عمرو الداني ج2 ص605 جامعة الشارقة – الإمارات (أصل الكتاب رسائل ماجستير من جامعة أم القرى وتم التنسيق بين الرسائل وطباعتها بجامعة الشارقة) الطبعة: الأولى، 1428 هـ - 2007 م)

(30) القطيع: ضعيف الكلام. ينظر: أساس البلاغة، الزمخشري، ص: 514.

(31) ابن الجزري، غاية النهاية (223/1).

([32]) أحمد القضاة، مجلة الزرقاء ص 43

ومن جهة ثانية أكدوا على ضرورة أن يكون التحقيق وما فيه من كلفة ومشقة تابعا للحدود التي وضعها علماء التجويد بحيث لا تخرج القراءة عن حدها كما أشار إلى ذلك قول الداني: " من غير تجاوُز ولا تعسف ولا إفراط ولا تكلف "[33]، كما حرصوا على بيان أن هذه القراءة إنما يُقرأ بها لرياضة الألسنة، وتعويد المبتدئين على إتقان القراءة وتحسين الأداء، كما تقدم بيانه عن حمزة الزيات والكسائي.

والتحقيق المبالغ فيه بقصد تمييز الحروف وتقشيرها لا يدعو إلى الإفراط في التمطيط، والإسراف في إشباع الحركات، ولا شك أن هذا الإنكار في موقعه، وله أهميته، فالقراءة لا يجوز بحال أن تخرج عن حدودها اتباعاً لنغم، أو رعاية لطرب أو حسن صوت، وقد نبّه كثير من علماء التجويد على هذا الأمر كما نبه الداني[34]

ب) الحدر:

لغةً : مصدر حدر يحدر إذا أسرع، فهو من الحدر الذي هو الهبوط من علو إلى أسفل، والإسراع من لوازمه بخلاف الصعود، والحدر في الأذان والقرآن، يقال: حدر القراءة حدراً، أي أسرع فيها من غير إخلال بالحروف ومخارجها وصفاتها، مع مراعاة عدم بترها[35].

وقد اجتمعت كلمة علماء التجويد على أمرين رئيسين في قراءة الحدر هما:

-الإسراع في القراءة.

-مراعاة أحكامها من غير تضييع ولا إخلال.

ولبيان ذلك أُورد ما ذكره أرباب هذا الفن.

عرّفه أبو عمرو الداني الحدر بقوله: " سرعة القراءة مع تقويم الألفاظ وتمكين الحروف "[36].

([33]) الداني، التحديد ص70.

([34]) انظر مثلاً: السعيدي، علي بن جعفر، التنبيه على اللحن الجلي واللحن الخفي ص 261، تحقيق: غانم قدوري حمد، مجلة المجمع العراقي، والمفيد ص 150، وزكريا الأنصاري (ت 926 هـ) شرح الجزرية ص 64، مؤسسة مناهل العرفان – بيروت، ومكتبة الغزالي – دمشق ط2 سنة 1411هـ = 1990 م.

([35]) انظر: أبا بكر الزبيدي الأندلسي، مختصر العين، 285/1، والنشر 207/1، والزبيدي (محمد مرتضى) تاج العروس من جواهر القاموس، 554/10 مادة : حدر طبعة دار الجيل .

([36]) الداني، التحديد، ص 73.

وقال المرادي (ت749هـ)": : "وأما الحدر فهو القراءة السهلة السمحة العذبة الألفاظ اللطيفة المعنى التي لا تخرج القارئ عن طباع العرب، وعما تكلمت به الفصحاء". [37]

وقال ابن الجزري:

"عبارة عن إدراج القراءة وسرعتها وتخفيفها بالقصر والتسكين والاختلاس والبدل والإدغام الكبير وتخفيف الهمز ونحو ذلك، مما صحت به الرواية، ووردت به القراءة، مع إيثار الوصل، وإقامة الإعراب ،ومراعاة تقويم اللفظ وتمكين الحروف، وهو عندهم ضد التحقيق". [38]

وهذه النقول تؤكد على أهمية العناية بالحروف، وإخراجها من مخارجها، والنطق بالكلام صحيحاً فصيحاً واضحا جليّا، دون مضغ لحرف أو تضييع لحركة أو شدّ أو همز أو غنة في غير موضعها، إذ لابد أن تُستودع الحروف مقارَّها، لتخرج سليمة سلسة صحيحة، ومن عدل إلى غير ذلك فقد أفسد القراءة وخرج عن أصولها.

روي الداني بسنده، قال:" جاء رجل إلى نافع فقال: تأخذ عليّ الحدر؟ فقال نافع: ما الحدر؟ ما أعرفها، أسمعنا، فقرأ الرجل، فقال نافع: الحدر أن لا نسقط الإعراب، ولا ننفي الحروف، ولا نخفف مشدداً، ولا نشدد مخففاً، ولا نقصر ممدوداً، ولا نمد مقصوراً، قراءتنا قراءة أكابر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، سهل جزل لا نمضغ ولا نلوك، ننبر ولا نبتهر، نسهل ولا نشدُد، نقرأ على أصح اللغات وأمضاها، ولا نلتفت إلى أقاويل الشعراء وأصحاب اللغات ... نسمع في القرآن ولا نستعمل فيه بالرأي"[39]

وهذا النص الأخير بيّن أهمية العناية بالحروف مخرجا وصفة حال القراءة السريعة، فإعطاء الحروف حقها في النطق هو الأصل و الأساس، سواء أكانت القراءة بطيئة أم سريعة، كما يظهر مدى عناية علماء القراءة بالمحافظة على الصوت بما فيه من تشديد وتخفيف وهمز ومد وقصر، والملاحظ أن المرجع دوما فيما نقل هؤلاء العلماء وفيما شددوا عليه هو الرواية، وأن ذلك كله تم تلقيه بالسماع والعرض، ولا مدخل فيه للرأي والاجتهاد وإنما يكون الاجتهاد في تأصيل الأصول ورسم القواعد التي تَحفظ السماع، وتحرس النقل من الضياع[40].

([37]) المرادي، المفيد، ص157، 156.

([38]) ابن الجزري، النشر207/1.

([39]) الداني، التحديد ص93.

([40]) أحمد القضاة، مجلة الزرقاء ص 44.

وإنكار نافع للحدر إنما حصل عند سماعه لقراءة الرجل الذي سأله، وليس معناه أن نافعًا لا يعرف معنى الحدر كما يبدو من خلال ظاهر النص، لعل نافعًا كان يسمع الحدر لكثير من القَرَأَة فكان لا يعجبه طريقة الإتيان به، لذلك طلب من السائل أن يقرأ عليه ظنًّا منه أنه من زمرة أولئك الذين لا يتقنون فن الحدر، بدليل أنه لما قرأ عليه وقع في محاذير كثيرة: كإسقاط الإعراب، وتضييع بعض الحروف، وتشديد المخفف وتخفيف المشدد. ولذلك نبه على أهمية أن يراعي قواعد النطق وصحة إيقاع الكلام إذا قرأ قراءة سريعة، مشيراً إلى أن قراءة القرآن لا تكون بالرأي والتشهي، وإنما هي محكومة بالنقل والسماع من العلماء المتقنين.

وقد روي عن ابن مجاهد (ت324هـ) أنه سُئل : "من أقرأُ الناس؟ فقال: من حقق في الحدر".[41]

ج) التدوير:

لغة هو التوسط بين الأمرين، وهو الإتيان بالقراءة متوسطة بين التحقيق والحدر.[42]

قال ابن الجزري: "وهو الذي ورد عن أكثر الأئمة، ممن روى مد المنفصل ولم يبلغ فيه إلى الإشباع، وهو مذهب سائر القراء، وصح عن جميع الأئمة، وهو المختار عن أكثر أهل الأداء"[43]، وهو أسرع من التحقيق وأبطأ من الحدر.

توضيح: الترتيل يعمُّ هذه المراتب كلها إذ لو كان – أعني الترتيل – مرتبةً مستقلةً لكان التدوير والحدر ليسا ترتيلاً، وعند ذلك لا يكونا ممّا أمرنا الله عز وجل به في قوله تعالى :﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيْلاً﴾[المزمل:4] وبناء عليه تكون القراءة بهما غير جائزة، أَمَا وإنّ المراتب الثلاث نُقِلَت عن الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنه لابد أن يشملها الترتيل فتكون كلها ترتيلاً. [44]

هذه هي مراتب القراءة التي ذكرها العلماء في مؤلفاتهم، وذكر بعضهم مرتبتين هما: الهذُّ والزمزمة، وهما نوعان أو مرتبتان من مراتب القراءة، نذكرهما من باب بسط الفائدة في كل ما له تعلق بمسار النطق وتقويم اللسان.

فالهذُّ لغةً : سرعة القطع وسرعة القراءة، وفي الحديث أن رجلاً قال لابن مسعود: "قرأتُ المفَصَّل البارحة كله، فقال ابن مسعود: هذّاً كهذّ الشعر!".[45] فكأن ابن مسعود أنكر على الرجل أن يقرأ المفصل في ليلة يهذُّه هذًّا، أي يقرؤه قراءة سريعة، قال النووي (ت676هـ):" معناه أن الرجل أخبر بكثرة حفظه وإتقانه، فقال ابن مسعود: تهذُّه هذّاً، وهو بتشديد

([41]) حمد، غانم، الدراسات الصوتية، ص561 نقلاً عن الإيضاح لابن أبي عمر ورقة 67 والتمهيد للعطار ورقة 88ظ .

([42]) ابن الجزري، النشر207/1، وهداية القاري، ص43.

([43]) ابن الجزري، النشر207/1.

([44]) وإلى هذا أشار المرادي في مفيده، ص38.

([45]) مسلم بن الحجاج النيسابوري ت261هـ، صحيح مسلم 564/1 رقم الحديث 822. وصحيح البخاري 112/6.

الذال، وهو شدة الإسراع والإفراط في العجلة، ففيه النهي عن الهذّ، والحث على الترتيل والتدبر، وبه قال جمهور العلماء"[46].

والزمزمة : صوت خفي لا يكاد يُفهم، يقال: زمزم العلج، إذا تكلف الكلام عند الأكل وهو مطبق فهمه والزمزمة: الصوت البعيد تسمع له دوياً.[47]

وإلى هذين النوعين أشار عدد من علماء التجويد والقراءة، منهم أبو معشر الطبري (ت478هـ) والشيرازي (ت565هـ)، والزمزمة عندهم هي: القراءة في النَّفْس بصوت خفي، سواء أكان هذا الصوت بتؤدةٍ وأناةٍ أم كان بعجلة وإسراع.[48]

وإذا كان علماء التجويد لم يغفلوا عن العناية بالأداء الصوتي في أثناء القراءة هذّاً أو زمزمة، فمن باب أولى أن تكون عنايتهم به في أثناء القراءة بصوت مسموع متأنٍ، وهنا ندرك معنى قوله عزّ وجلّ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر9] هذه الرعاية الفائقة بالأداء الصوتي لكلمات القرآن الكريم على جميع مستوياته هي من باب العناية بالوحي، فالله تعالى سخر هؤلاء العلماء ليضربوا بأصوار من النصوص تحمي صوت القرآن الكريم من أن يخالطه ما ليس منه، وهو ما يمثله التواتر في نقل القراءة إلينا غضة طرية صوتا ورسما، عبر أزمان عديدة [49].

قال المرادي:" والقراء مجمعون على التزام التجويد في جميع أحوال القراءة، من ترتيل وحدر وتوسط، وربما توهّم قوم أن التجويد إنما يكون مع الترتيل؛ لاعتقادهم أن التجويد إنما هو الإفراط في المد وإشباع الحركات ونحو ذلك مما لا يتأتى مع الحدر، وليس كما توهموه، وإنما حقيقة تجويد القراءة ما قدمته لك، وذلك متأتٍ مع الحدر كما يتأتى مع الترتيل، ولا يُنكَر أن الأخذ بالترتيل أتمُّ مداً وتحريكاً وإسكاناً من الأخذ بالحدر، ولكن لابد في جميع ذلك من إقامة مخارج الحروف وصفاتها"[50].

([46]) النووي، يحي بن شرف الدين ت 676هـ، شرح صحيح مسلم 104/6، 105، ومؤسسة مناهل العرفان- بيروت، ومكتبة الغزالي- دمشق.

([47]) ابن منظور الإفريقي، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، مادة زمم 274/12 دار صادر- بيروت بلا تاريخ. والفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط 126/4، فصل الزاي، باب الميم، دار الفكر- بيروت سنة 1403هـ-1983م.

([48]) أبو معشر الطبري، عبد الكريم بن عبد الصمد، ت478هـ، التلخيص في القراءات الثمان، ص32. ط1 سنة 1412هـ-1992م دراسة وتحقيق: محمد حسن عقيل موسى، والموضح، 158/1، 157 .

([49]) أحمد القضاة، مجلة الزرقاء ص 46.

([50]) المرادي، المفيد، ص38

مخارج الحروف وصفاتها وأثرهما على الصوت

1. دعائم علم التجويد:

يرى كثير من الباحثين أن دراسة علماء التجويد للأصوات كانت ترتبط بشكل أساسي بمعالجة ما سمّوه باللحن الخفي، واللحن عندهم قسمان: اللحن الجليّ: وهو الخطأ الظاهر الواضح الذي يعتري الحركات خاصة وهذا ميدان عمل النحاة والصرفيين، واللحن الخفي: وهو الخلل الذي يطرأ على الأصوات من جرّاء عدم توفيتها حقوقها من المخارج أو الصفات، أو ما يطرأ لها من الأحكام عند تركيبها في الكلام المنطوق، وقالوا بأن هذا هو ميدان عمل علماء التجويد، وهو يستلزم في نظرهم دراسة ثلاثة أمور:

أ- مخارج الحروف ب- صفاتها جـ- أحكامها التركيبية، وهذه هي عناصر علم التجويد الأساسية.

وقد نص العلماء قديما وحديثا على أهمية دراسة المخارج والصفات، فهذا أبو عمرو الداني يقول: "اعلموا أن قطب التجويد وملاك التحقيق معرفة مخارج الحروف وصفاتها التي بها ينفصل بعضها من بعض، وإن اشترك في المخرج"[51] وفي هذا يقول ابن الجزري في مقدمته[52]:

إِذْ وَاجِبٌ عَلَيْهِمُ مُحَتّـــمُ ... قَبْلَ الشُرُوعِ أَوَّلاً أَنْ يَعْلَمُوا

مَخَارِجَ الْحُرُوفِ وَالصِّفَاتِ ... لِيَلْفِظُوا بِأَفْصَـــحِ اللُغَاتِ

ويقول في نشره كذلك:

"أول ما يجب على مريد إتقان قراءة القرآن تصحيح إخراج كل حرف من مخرجه المختص به تصحيحاً يمتاز به عن مقاربه، وتوفية كل حرف صفته المعروفة به توفية تخرجه عن مجانسه، يعمل لسانه وفمه بالرياضة في ذلك إعمالاً يصير ذلك له طبعاً وسليقة، فكل حرف شارك غيره في مخرج فإنه لا يمتاز عن مشاركِهِ إلا بالصفات وكل حرف شارك غيره في صفاته فإنه لا يمتاز عنه إلا بالمخرج".[53]

2. مخارج الحروف:

إن دراسة مخارج الحروف قد حضيت برعاية فائقة من لدن علماء التجويد بدءً بتعريف المخرج وتحديده ثم عروجًا على ذكر عدد المخارج وبيان الخلاف فيها بين اللغويين، ثم انتهاء ببيان كيفية إخراج الحروف وذوقها لفحص صحة خروجها.

([51]) التحديد، ص104.

([52]) يرجى النظر في تعليق غانم قدوري، شرح المقدمة الجزية ص 138.

([53]) ابن الجزري، النشر241/1.

فالمخرج هو المكان أو الحيز الذي يتولد فيه صوت الحرف حال اصطدام أعضاء النطق، ويعرفه علماء التجويد بأنه : "الموضع أو الحيز الذي ينشأ منه الحرف، أو هو موضع ظهور الحرف وتمييزه عن غيره".[54]

أو هو الرحم الذي تتشكل فيه معالم الحرف حال اصطدام آلات النطق.

وعدد المخارج فيه خلاف بين علماء التجويد، والمختار عندهم أنها سبعة عشر مخرجاً، وهو مذهب الخليل بن أحمد ومكي بن أبي طالب القيسي وأبي القاسم الهذلي (ت465هـ) وأبي الحسن بن شريح (ت537هـ) وابن الجزري وغيرهم. ومذهب سيبويه أنها ستة عشر، وقد أخذ بهذا القول كثير من النحاة والقراء، والفرق أن هؤلاء أسقطوا مخرج الجوف ووزعوا حروفه على نظيراتها، فالألف من أقصى الحلق مع الهمزة، والواو المدية من مخرج الواو الجامدة والياء المدية من مخرج الياء الجامدة.

ومذهب قطرب والجرمي والفراء وغيرهم أنها أربعة عشر، حيث جعلوا النون واللام والراء من مخرج واحد وأسقطوا مخرج الجوف.[55]

والراجح أن مخارج الحروف سبعة عشر وهو القول الأصوب والأدق، لما فيه من تمييز الحروف المدية عن غيرها، وتمييز اللام والنون والراء بحيث يستقل كل منها بمخرج، ثم إن التشريح قد فصل في المسألة وأغلب الدراسات الصوتية الحديثة ترجح هذا الرأي بل تغلّط ما عداه.

وقد ذهب بعض أهل التجويد إلى القول: "إن لكل حرف مخرجاً" [56] ، ولا يخفى ما في هذا القول من مبالغة، فالمعروف أن هناك حروفاً تشترك في المخرج ولا يميز بينها إلا الصفات، ومع ذلك يبقى هذا الرأي قويا، إذ إن اشتراك بعض الحروف في مخرج واحد لا يعني بالضرورة تطابقهما تطابقا كاملا في ذات المكان، يكفي أن يتزحزح مخرج الحرف قيد أنملة ليتحقق المراد من هذا الرأي، والله أعلم.

أما قضية ذوق الحروف فيقصد منها معرفة موضع خروج الحرف بطريقة عملية تطبيقية، وقد وصف علماء التجويد ذوق الحروف بقولهم: "وإذا أردت معرفة مخرج الحرف فسكِّنه وأدخل عليه همزة الوصل، وأصغِ إليه فحيث انقطع صوته كان مخرجه" [57] وهو ما أشار إليه الخليل في عينه.

([54]) الداني، التحديد، ص104، وجهد المقل، 96.

([55]) ابن الجزري، النشر1/199، 198، وشرح المقدمة الجزرية ص31، وجهد المقل ص95- 96.

([56]) الأنصاري، شرح المقدمة الجزرية ص31.

([57]) المرجع السابق ص32، والملا علي القاري، المنح الفكرية على متن الجزرية ص8 المطبعة الميمنية بمصر سنة 1322هـ، وجهد المقل ص 96-97.

كما فرقوا بين المخرج المحقق والمخرج المقدر، اعتماداً على آلية مرور الهواء الذي يحدث منه الصوت فالمخرج المقدر هو الذي لا ينضغط فيه الصوت انضغاطاً ينقطع به الصوت، بل يمكن لك قطعه فيه" [58] أما المخرج المحقق فهو الموضع الذي ينقطع الصوت عنده بسبب انضغاطه، ولذلك كانت مخارج الحروف جميعاً محققة باستثناء أحرف المد فإن مخرجها مقدر، وسبب ذلك كما يقول المرعشي: " أن حروف المد لا تنضغط أصواتها في موضع انضغاطاً ينقطع به الصوت، بل تمتد بلين بلا تكلف إلى أن تقطعه بإرادتك.[59]

وهو ما حدا ببعض علماء التجويد إلى تقسيم الأصوات إلى ذائبة وجامدة، فالأصوات الذائبة هي أحرف المد الثلاثة، والجامدة ما عداها.[60]

قال صاحب الإيضاح:"

والحروف الذائبة ثلاثة: الياء المكسور ما قبله، والواو المضموم ما قبله، والألف ولا يجيء إلا مفتوحاً ما قبله، وهذه الحروف حروف المد واللين، سميت بذلك لأنها تذوب وتلين وتمتد، وما عداها جامد لأنه لا يلين ولا يذوب ولا يمتد"[61].

كما أطلق علماء التجويد على حروف المد لقب الجوفية؛ لخروجها من الجوف، والهوائية لخروج النفس معها بحرّية، دون أن يعترضه عائق يمنع انسيابه خلال الحلق والفم[62]، ولم يُغفل هؤلاء العلماء موضوع الربط بين هذه الأصوات وبين الحركات، فقد قرروا أن الفتحة من الألف، والضمة من الواو، والكسرة من الياء.[63]

وعلى هذا التقسيم تكون الأصوات الذائبة ثلاثة من حيث نوعها، وهي الفتحة والألف، والضمة وواو المد، والكسرة وياء المد، وستة من حيث الكمية، فالألف والواو والياء المدية أصوات طويلة، والفتحة والضمة والكسرة أصوات قصيرة.[64]

([58]) المرعشي، جهد المقل ص98.

([59]) المرعشي، جهد المقل ص97.

([60]) حمد، غانم قدوري، الدراسات الصوتية ص343.

([61]) المرجع السابق ص343 وقد نقل هذا عن الإيضاح لابن أبي عمر ورقة 74ظ.

([62]) القيسي، الرعاية ص16و142 والنشر199/1.

([63]) سيبوية، عمرو بن عثمان ت180هـ، الكتاب 101/4 الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة سنة 1975، تحقيق عبد السلام هارون. والتحديد، ص109 والنشر204/1.

([64]) حمد، غانم قدوري، الدراسات الصوتية ص346.

وخلاصة القول

:أن علماء التجويد حينما أدرجوا موضوع مخارج الحروف على بساط البحث والدراسة دققوا في تفصيل جميع الأصوات ومخارجها إلى درجة البحث في الحركة وجزء الحركة، حرصاً على سلامة الأداء وجودة القراءة، وحفظاً للرواية كي تنقل بتوقيف الأساتذة المجودين، والقراء المتقنين مشافهة دون إخلال بشيء مهما كان يسيراً[65].

3. صفات الحروف:

للعربية تفرّد واضح في مجال الأصوات يشهد لها به أهلها من اللغويين والنحاة والأدباء وفقهاء اللغة وعلماء الأصوات، بل والأبعدون كذلك، و قد أفصح علماؤها الأوائل عن كثير من جوانب هذا التفرّد، و ألوانه وخاصّة في مجال ذوق الحروف المفردة، وتركيب الكلمات، و العبارات، من ذلك صفات الحروف فقد درسها علماء التجويد دراسة وافية دقيقة، إذ أدركوا منذ البداية مالها من أهمية بالغة في الميز بين الحروف، ولا سيما التي تشترك في مخرج واحد، كما أدركوا أن صفة الصوت ليست أمراً مستقلاً عنه، بل هي جزء منه، ولا يتم خروج الصوت بحالته الصحيحة ما لم يكن متصفاً بجميع صفاته اللازمة له.

وهذا مكي بن أبي طالب قد تتبع صفات وألقاب الحروف حتى وصل بها إلى أربعة وأربعين [66] ، ولما كان بعض تلك الصفات والألقاب التي ذكرها لا يمثل كيفيات نطق الحروف والأصوات، فإن العلماء لم يتابعوه على جميع ذلك، فهذا أبو عمرو الداني وهو معاصر لمكي يقتصر على ست عشرة صفة، فيقول:" اعلموا أن أصناف هذه الحروف التي تتميز بها بعد خروجها من مواضعها التي بيناها ستة عشر صنفاً: المهموسة والمجهورة والشديدة والرخوة والمطبقة والمنفتحة والمستعلية والمستفلة، وحروف المد واللين، وحروف الصفير والتفشي والمستطيل والمتكرر والمنحرف والهاوي وحرفا الغنة.[67] ويضيف صفتين هما التوسط أو اللين الذي هو بين الشدة والرخاوة، وكذا القلقلة في باب صفات الحروف [68] وبهذا تكون الصفات التي تحدث عنها ثماني عشرة صفة، وتابعه العلماء على ذكر هذه الصفات والاقتصار عليها.[69]

([65]) أحمد القضاة، مجلة الزرقاء ص 49.

([66]) القيسي، الرعاية ص143، 115.

([67]) الداني، التحديد ص 107.

([68]) المرجع السابق ص108، 111.

([69]) انظر مثلاً: الشاطبي، القاسم بن فيره ت590هـ، حرز الأماني ووجه التهاني ص152 دار الكتاب النفيس ط1 سنة 1407هـ-1987م، والنشر205/1، 202 وشرح المقدمة الجزرية ص55، 45 وجهد المقل ص118، 114.

وهنالك تقسيم آخر للصفات بحسب قوتها وضعفها، فالصفات القوية هي: الجهر والشدة والإطباق والاستعلاء والاستطالة والقلقلة والصفير والتفشي والانحراف والتكرير والغنة، والصفات الضعيفة هي: الهمس والرخاوة والاستفال والانفتاح واللين وهناك صفة التوسط بين الشدة والرخاوة[70].

وعلى إثر هذا التقسيم تميز علماء التجويد بدراسة كل صفة من صفات الحروف مبينين الفرق بينها وبين الصفة المقابلة إن كان لها مقابل، وهو ما يعبر عنه بالصفات التي لها ضد والصفات التي لا ضد لها، ويسجلون ملحوظاتهم حول الحروف ونطقها، وما الذي يفعله الإخلال بالصفات من تغيير في الحروف وأجراسها.

يقول مكي:" لولا الجهر الذي في العين لكانت حاءً، ويقول كذلك: لولا الهمس الذي في السين لكانت زاياً، كذلك: لولا الجهر الذي في الزاي لكانت سيناً، إذ قد اشتركا في المخرج والصفير والرخاوة والانفتاح والتسفّل، وإنما اختلفا في الجهر والهمس لا غير".[71]

ويقول ابن الجزري:

"والتاء والدال والطاء اشتركت مخرجاً، وانفردت الطاء بالإطباق والاستعلاء، واشتركت مع الدال في الجهر وانفردت التاء بالهمس، واشتركت مع الدال في الانفتاح والاستفال".[72]

ويقول المرعشي:

"ويفترق الطاء عن الدال بالانطباق والاستعلاء والتفخيم، فلولا هذه الثلاث لكانت دالاً، ولولا أضدادها في الدال لكانت طاءً، وعن التاء بهذه الثلاث وبالجهر، فلولا هذه الأربع لكانت تاءً، ولولا أضدادها في التاء لكانت طاءً".[73]

وقد بلغ علماء التجويد الغاية في التدقيق وتوضيح النطق الصحيح بالحروف والأصوات، حتى إنهم ذهبوا إلى ما هو أدق وألطف وأرق من ذلك فيما يسمونه مبحث "استعمال الحروف" إذ نبهوا على ضرورة التفرقة بين الحروف التي تشترك في كثير من الصفات ولا سيما إذا التقت في سلسلة الكلام، ولهذا نجد الإمام أبا الحسن السعيدي المتوفى في مطلع القرن الخامس يقف مع كثير من القضايا الصوتية مبيناً الطريقة الصحيحة لنطق الحروف، ومحذراً من اللحن فيها فيقول:

([70]) المرجع السابق ص53، والأنصاري: شرح المقدمة الجزرية ص55.

([71]) القيسي، الرعاية ص164و211.

([72]) ابن الجزري، النشر214/1.

([73]) المرعشي، جهد المقل ص139.

" ومما يحفظ أيضاً بيان الجيم عند التاء في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ﴾ [يوسف 6]، و﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ﴾ [الحج 30].. يؤمر القارئ ببيان ذلك جيداً لئلا تختلط بالشين، ومما يحفظ أيضاً بيان اللام عند الجيم وتخفيف الجيم بعدها في مثل قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ﴾ [الأعراف 40].. لئلا تدغم اللام في الجيم، ومما يحفظ أيضاً بيان الغين عند القاف في قوله تعالى: ﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾ [آل عمران 8].. وبيان الحاء إذا سكنت عند العين في قوله: ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ ﴾ [الزخرف89] لئلا تدغم".[74]

كما درس علماء التجويد المشكلات التي عرضت لعدد من الحروف كالضاد والجيم والهمزة والطاء، وبينوا بدقة متناهية صفات هذه الحروف، وكيف يتم إخراجها بشكل صحيح، ولهم في ذلك مؤلفات وبحوث لا يتسع المجال للحديث عنها. وقد أضاف العلماء عناصر أخرى، وعدوها أساسية في علم التجويد، وفي هذا المقام أنقل نصاً جامعاً للمرادي (ت749هـ) يقول فيه:" إن تجويد القراءة يتوقف على أربعة أمور:

- أحدها: معرفة مخارج الحروف.
- والثاني: معرفة صفاتها.
- والثالث: معرفة ما يتجدد لها بسبب التركيب من الأحكام.

- والرابع: رياضة اللسان بذلك وكثرة التكرار.

وأصل ذلك كله وأساسه تلقيه من أولى الإتقان، وأخذه عن العلماء بهذا الشأن، وإن انضاف إلى ذلك حسن الصوت، وجودة الفك، وذرابة اللسان، وصحة الأسنان كان الكمال".[75]

ويعد هذا النص من أشمل النصوص وأكثرها وفاءً بالحديث عن أسس علم التجويد.

والحق أن هذه الأمور التي ذكرها المرادي ترجع إلى العنصرين الرئيسين: المخارج والصفات، فمعرفة ما يتجدد للحروف بسبب التركيب من الأحكام، لا يستقل عنصراً ثالثاً، بل هو من قبيل الصفات العارضة كالإدغام والإظهار والمد والقصر ونحو ذلك، لأن هذه الأحكام لا تكون للحروف إلا إذا اتصل بعضها ببعض في سلسلة الكلام[76].

قال ابن الجزري:

([74]) السعيدي، أبو الحسن علي بن جعفر، التنبيه على اللحن الجلي واللحن الخفي، ص275، 274 تحقيق: غانم قدوري حمد، منشور في مجلة المجمع العلمي العراقي.

([75]) – المرادي، المفيد ص39.

([76]) أحمد القضاة، مجلة الزرقاء ص 52.

"فإذا أحكم القارئ النطق بكل حرف على حدته، موف حقه، فليعمل نفسه بإحكامه حالة التركيب؛ لأنه ينشأ عن التركيب ما لم يكن حالة الإفراد، وذلك ظاهر، فكم ممن يحسن الحروف مفردة ولا يحسنها مركبة بحسب ما يجاورها من مجانس ومقارب وقوي وضعيف ومفخم ومرقق، فيجذب القوي الضعيف، ويغلب المفخم المرقق، فيصعب على اللسان النطق بذلك على حقه إلا بالرياضة الشديدة حالة التركيب، فمن أحكم صحة اللفظِ حالة التركيب حصّل حقيقة التجويد بالإتقان والتدريب".[77]

والنطق في التركيب يكون إما بتركيب حرف مع حرف، فينشأ من ذلك أحكام المد والقصر والترقيق والتفخيم والإظهار والإدغام .. ونحو ذلك، أو بتركيب كلمة مع كلمة فتنشأ من ذلك أحكام الوصل والقطع والوقف والابتداء ونحو ذلك.[78]

وأوضح نص يعرض قانون التجويد وميزانه الدقيق الذي تقاس عليه القراءة الصحيحة هو ما ذكره ابن الجزري في نشره حين قال:" إن أصل الخلل الوارد على ألسنة القراء .. هو إطلاق التفخيمات والتغليظات على طريق ألفتها الطباعات، تُلقّيَتْ من العجم واعتادتها النبط، واكتسبها بعض العرب، حيث لم يقفوا على الصواب ممن يُرجع إلى علمه، ويوثق بفضله وبفهمه، وإذا انتهى الحال إلى هذا فلابد من قانون صحيح يُرجع إليه، وميزان مستقيم يُعوُّل عليه".[79]

وإلى هذا يشير الإمام علم الدين السخاوي (ت643هـ) بقوله في منظومته (عمدة المجيد في النظم والتجويد)

لِلْحَرْفِ مِيزَانٌ فَلاَ تَكُ طَاغِياً ...فِيه وَلاَ تَـــكُ مُخْسِرَ الْمِيزَانِ

قال المرادي في شرح هذا البيت:

"يعني أن لكل حرف ميزاناً يُعرف به مقداره وحقيقته، وذلك الميزان هو مخرجه وصفته، فإذا أُخرج من مخرجه معطىً ماله من الصفات على وجه العدل في ذلك، من غير إفراط ولا تفريط، فقد وُزن بميزانه، وهذا هو حقيقة التجويد".[80]

([77]) ابن الجزري، النشر1/215، 214.

([78]) الفنيسان، سعود بن عبد الله، حكم القراءة بالتغني والتجويد ص30، بحث منشور في مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، السنة الثانية العدد السادس، 1411هـ.

([79]) ابن الجزري، النشر1/215.

([80]) المرادي، المفيد ص60، 61.

ورياضة اللسان بالتجويد وسيلة نافعة لزيادة الإتقان وتسهيل النطق بالقراءة وهي الفيصل بين إتقان التجويد وعدمه، فمن أخذ نفسه بالرياضة أتقن وأجاد، ومن تركها نسي وضيَّع[81].

يقول أبو عمرو الداني: "وليس بين التجويد وتركه إلا رياضة من تدبره بفكه".[82]

ويضيف في آخر كتابه (التحديد):

"فهذه حروف التجويد بأصولها وفروعها على مراتبها ومخارجها، قد شرحناها وبينا حقائقها لتُحفظ بكمالها، ويقاس عليها أشكالها، وجميع ذلك يُضطر في تصحيحه إلى الرياضة، ويُحتاج في أدائه إلى المشافهة لينكشف خاصُّ سرِّه، ويتضح طريق نقله، وبالله التوفيق".[83]

ويقول ابن الجزري:

"ولا أعلم سبباً لبلوغ نهاية الإتقان والتجويد، ووصول غاية التصحيح والتشديد مثل رياضة الألسن والتكرار على اللفظ المتلقى من فم المحسن، وأنت ترى تجويد حروف الكتابة كيف يبلغها الكاتب بالرياضة أو التكرار وتوقيف الأستاذ".[84]

وقضية التلقي والمشافهة من أفواه الضابطين أمر لابد منه للجمع بين الدراية والرواية، فقضية التلقي تعني الرواية الصحيحة والتلقين المباشر الذي يحصل بالمشافهة والنظر، وهي الطريقة الصحيحة لمعرفة القراءة وإتقان التلاوة، من أجل ذلك أرسل سيدنا عثمان مع كل مصحف نسخه قارئا توافق قراءته ما خُطّ في المصحف ليبين الأصل في القراءة، ألا وهو الرواية والتلقي والمشافهة، وعدم الاكتفاء بالقراءة حاضرا من المصحف.

فالقرآن الكريم تواتر نقله سماعاً وعرضاً حيث كان الرسول صلى الله عليه وسلم يسمعه من جبريل، ثم يعرضه عليه مرة بعد مرة، ثم يقرأ صلى الله عليه وسلم القرآن على أصحابه، ويطلب منهم أن يقرؤوا عليه، يؤيد ذلك ما ثبت من أحاديث صحيحة، منها ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير، وأجود ما يكون في شهر رمضان، لأن جبريل كان يلقاه في كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ، يعرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن، فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة».[85]

([81]) أحمد القضاة، مجلة الزرقاء ص 53.

([82]) الداني، التحديد ص70.

([83]) المرجع السابق ص170.

([84]) ابن الجزري، النشر213/1.

([85]) البخاري، صحيح البخاري 102/6، 101 كتاب فضائل القرآن.

وكان الصحابة رضوان الله عليهم يسارعون إلى الأخذ والمشافهة والتلقي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل كانوا يفاخرون بذلك، لأنه السبيل إلى توثيق قراءتهم والاستشهاد لصحتها، فعن عبد الله بن مسعود قال: « والله لقد أخذت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعاً وسبعين سورة، والله لقد علم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أني من أعلمهم بكتاب الله وما أنا بخيرهم».[86]

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يطلب من أصحابه أن يقرؤوا عليه ليسمع القرآن منهم غضا طريا كما سمعوه منه صلى الله عليه وسلم، مبيناً لهم أن هذا التوجيه إنما يتم بأمر الله سبحانه، فسبيل تلقي القرآن السماع والعرض، فقد ثبت في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم لابن مسعود: « اقرأ عليّ القرآن، قلت أي ابن مسعود: أأقرأ عليك وعليك أُنزل يا رسول الله؟ قال: إني أحب أن أسمعه من غيري ».[87]

وقوله لأبيّ بن كعب: « إن الله أمرني أن أقرأ عليك. قال: آلله سماني لك؟ قال: الله سماك لي، قال: فجعل أُبيّ يبكي».[88]

وقد بلغ حرص العلماء على التلقي والمشافهة أنهم يثبتون أسانيدهم التي تلقوا بها القرآن رجلاً عن رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، يثبتون هذه الأسانيد في مؤلفاتهم وكتبهم زيادة في توثيق الرواية، وبياناً لصحة النقل.[89]

وأما حسن الصوت وجمال القراءة وجودتها، وسلامة الفك، وصحة أعضاء النطق، فهي شروط ومكملات حتى يكون الأداء في غاية الإتقان والحسن، وقد ورد في تحسين الصوت بالقرآن أحاديث كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم: « زينوا القرآن بأصواتكم».[90]

وقوله صلى الله عليه وسلم لأبي موسى الأشعري: « لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة، لقد أوتيتَ مزماراً من مزامير آل داود» [91] والعجيب رد أبي موسى حين سمع مقال النبي صلى الله عليه وسلم " لو كنت أعلم أنك تستمع إلي

([86]) المرجع السابق 102/6.

([87]) المرجع السابق 113/6، وصحيح مسلم 551/1 رقم الحديث 800.

([88]) مسلم، صحيح مسلم 550/1 رقم الحديث 799.

([89]) انظر مثلاً: الحلبي، طاهر بن غلبون، ت399هـ، التذكرة في القراءات الثمان 11/1 وما بعدها ط1 سنة 1412هـ-1991م. تحقيق: د. أيمن رشدي سويد، والطبري، أبو معشر، التلخيص ص89 وما بعدها، وابن القباقبي، شمس الدين محمد بن خليل الحلبي، إيضاح الرموز ومفتاح الكنوز في القراءات الأربع عشرة ص17 وما بعدها. رسالة دكتوراه، تحقيق: أحمد خالد شكري. غير مطبوع، وابن القاصح البغدادي، علي بن عثمان ت801هـ، مصطلح الإشارات في القراءات الزوائد المروية عن الثقات، ص5 وما بعدها. رسالة ماجستير، تحقيق: أحمد محمد القضاة. (غير مطبوع).

([90]) النسائي، سنن النسائي 179/2- 180 رقم الحديث 1016 وسنن ابن ماجة 426/1 رقم الحديث 1342.وصححه الألباني رحمه الله.

([91]) مسلم، صحيح مسلم 546/1 رقم الحديث 793، وسنن النسائي 181/2- 180 الأحاديث ذوات الأرقام (1019، 1020، 1021) وسنن ابن ماجة، 426/1، 524 رقم الحديث (1341).

لحبرته لك تحبيرا" وقوله صلى الله عليه وسلم « ما أذن[92] الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به».[93]

الجهرُ به مع تحسِين الصوتِ والخشوعِ فيهِ، حتَّى يُحرك القلوبَ.

وتحسين الصوت عند قراءة القرآن مطلوب، بل خرَّج البخاري باباً في صحيحه بعنوان "باب حسن الصوت بالقراءة" وقد أجاز العلماء التغني بالقرآن بضوابط.

وتحسين الصوت بالقراءة يزيدها حسناً وجمالاً وبهاء ويضفي عليها هيبة ووقارا، ويعطيها رونقًا وزينة وكمالا، ويرغّب السامعين في الإنصات والإقبال، ولابد من مراعاة أن تكون القراءة سهلة عذبة، لا تكلف فيها ولا تنطع، ولا تعسف ولا تصنع.

قال ابن الجزري: "وأما قراءتنا التي نقرأ ونأخذ بها، فهي القراءة السهلة المرتلة العذبة الألفاظ، التي لا تخرج عن طباع العرب، وكلام الفصحاء، على وجه من وجوه القراءات، فنقرأ لكل إمام بما نُقل عنه .."[94]

أما الحديث عن أعضاء النطق ووصفها وبيان أجزائها فهو مهم ومفيد جداً في دراسة علم التجويد، وقد أدرك علماء التجويد ذلك، فأفادوا مما ذكره علماء اللغة في هذا الباب، كالخليل وسيبويه وابن جني وغيرهم[95] وزادوا عليه فتحدثوا عن أعضاء النطق في أثناء وصفهم لمخارج الحروف حديث الخبير المطلع والعارف المتقن[96].

فالحديث عن أعضاء النطق وتخيّل حركاتها المخبئة داخل تجويف الفم أو الحلق لم تعد كتابا يقرأ أو خيالا يُتصور، فعلماء التشريح مع علماء التصوير ومهندسي الحاسوب استطاعوا بالصوت والصورة والأبعاد الثلاثية تقريب هذا الموضوع وتبسيطه، ولعل كتاب التجويد المصور المشفع بقرص والذي ألّفه علامة العصر الأستاذ الدكتور أيمن سويد – حفظه الله – قد أزال كثيرا من الإشكالات وقرب علم التجويد إلى حد كبير.

([92]) أي ما استمع .

([93]) المرجع السابق، 545/1 رقم الحديث (792) وسنن النسائي، 180/2 رقم الحديث (1017).

([94]) ابن الجزري، التمهيد ص57.

([95]) الفراهيدي، الخليل بن أحمد ت170هـ، العين 52/1، 51 دار الرشيد للنشر– بغداد، ومطابع الرسالة– الكويت 1400هـ–1980م. وسيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان ت180هـ، الكتاب 431/4، عالم الكتب– بيروت ط3 سنة 1403هـ–1983م.

([96]) الداني، التحديد ص106، 104، والمرادي، المفيد ص46، 41، وابن الجزري، التمهيد ص163، 113، والقسطلاني، أحمد بن محمد بن أبي بكر ت923هـ، لطائف الإشارات لفنون القراءات 183/1 لجنة إحياء التراث الإسلامي– القاهرة 1392هـ–1972م تحقيق: د. عبد الصبور شاهين وعامر السيد عثمان، والدركزلي، حسن بن إسماعيل الموصلي ت1327هـ، خلاصة العجالة في بيان مراد الرسالة، ورقة 12ظ، مخطوط في مكتبة المتحف العراقي، بغداد رقم 23513.

الخاتمة

وقبل طيّ آخر صفحات هذا البحث هذه أهم النتائج المتوصل إليها، أجملها في النقاط الآتية:

أولاً: علم التجويد هو الأداة الرابطة بين الدراسات اللغوية والدراسات القرآنية ومن الصعوبة بمكان الفصل بين هذين العلمين المتلازمين، وعليه يكلف طلبة الدراسات الشرعية بدراسة متكاملة معمقة للدراسات اللغوية بما يضمن لهم سلامة النطق مع تحقيق الفصاحة والبلاغة في كتاباتهم وخطاباتهم، وأن يكون اهتمامهم بالنحو واللغة والأدب لا يقل أهمية عن اهتمامهم بالفقه والتفسير والعقيدة والحديث...

ثانياً: يكلف كذلك طلبة الدراسات اللغوية والأدبية بدراسات معمقة للمسائل الشرعية بحيث يكون لهم الحد الأدنى الكبير من الثقافة الإسلامية وبالأخص علم التجويد والقراءة لتزداد فصاحتهم ويكتمل عقد نبرتهم.

ثالثاً: لا يجب الخلط بين علمي التجويد والقراءات، فالفروق بينهما أضحت واضحة جلية.

رابعاً: علماء التجويد لم يهملوا طرائق القراءة ومراتبها المأذون بها من تحقيق وحدر وتدوير وغيرها، وكل هذه المراتب من شانها أن تكون سببا مباشرا في تصحيح مسار النطق وتقويم اللسان.

خامساً: علم التجويد أساسه الأول باب المخارج والصفات، وهذان أصلان لغويان صوتيان يسهمان بشكل واضح وكبير في تفصيح اللسان وتدريبه وترويضه على النطق السليم، وهذا كله مرهون بالتلقي والمشافهة عن أولي الإتقان، والأخذ المباشر عن المهرة الحفاظ المجودين، حتى يبلغ القارئ الكمال، ولا سبيل لتحقيق ذلك إلا إذا عقل ركبتيه بين يدي شيخه طالبا الإجازة وعلو السند في القراءة.

سادساً: حسن الصوت وجمال القراءة والمبالغة في تزيينها داخل حدود الأداء المأذون به يصل بصاحبه إلى مرتبة الكمال، وكلما حرص الطالب على الإجادة كلما كان من السفرة الكرام البررة أقرب.

سابعا: سلامة أعضاء النطق من العيوب الخلقية رصيد كبير لمن أراد أن يبلغ مرحلة الكمال[97].

ثامنًا: امتداد ذراع الدراسات الصوتية الحديثة يتدخل في العديد من علوم اللغات عموماً ومنها العربية وكان لعلم التجويد نصيب واضح من هذا التدخل، وما نريد أن نثبته هنا هو أن حروفنا العربية محفوظة الأصول، معروفة الأنساب.

[97]) النتائج السبعة السابقة استلهمتها من وحي وإبداعات عالم الصوتيات الكبير سيدي الدكتور أحمد القضاة حفظه الله والتي ضمنها بحثه.

تاسعًا: قام علماء التجويد باستخلاص المادة الصوتية من مؤلفات النحويين واللغويين وعلماء القراءة وصاغوا منها هذا العلم الجديد، الذي اختاروا له اسم (علم التجويد)، وواصلوا أبحاثهم الصوتية مستندين إلى تلك المادة، وأضافوا إليها خلاصة جهدهم حتى بلغ علم التجويد منزلة عالية من التقدم في دراسة الأصوات اللغوية.

عاشرًا: من حق القرآن علينا نحن المسلمين أن نُجِيد تلاوته وترتيله؛ حتى يكون عونًا لنا على تدبُّره، وتفهُّم معانيه، ولا يتأتَّى ذلك إلا بالاهتمام بدراسة علم التجويد، ومعرفة أحكامه وتطبيقها، إما بالاستماع إلى قارئ مجيد، أو القراءة على شيخ حافظ متقن.

إحدى عشر: هناك الكثير من الدراسات الصوتية الجادة التي تخدم القرآن الكريم وتجدد طرائق التصويت به بما لا يخرج عن القواعد التجويدية العامة التي وضعها علماء التجويد، هذه الدراسات تحتاج إلي من يهتم بطباعتها وإيصالها إلى أكبر عدد ممكن من المهتمين بمجال القراءة والدراسات الصوتية .

اثنا عشر: التكلف في القراءة مذموم إن كان على الدوام، لكنه مطلوب في بداية طريق المتعلمين حتى تتعود ألسنتهم على تحقيق الحروف وتخليصها من صفات ما جاورها.

ثلاثة عشر: علم الصوتيات الحديث، مهما كانت النتائج التي يتوصل إليها فإنها غير مخولة ولا مؤهلة للتدخل في تغيير حكم من أحكام التجويد أو التعديل عليه بما يخرجه عن صورته التي تم نقله عليها، أو تغيير نطق حرف بحرف.

أربعة عشر: ضرورة الاستعانة بما توصل إليه العصر الحديث من أجهزة صوتية حديثة، وبالتكنولوجيا المعاصرة، والاستفادة منها في الفصل في كثير من القضايا المتعلقة بالدراسات الصوتية القرآنية، شريطة أن لا يخرج ذلك عن الضوابط والأصول التي وضعها علماؤنا الأقدمون ويعرفها المتخصصون في علم التجويد والقراءات في كل عصر.

خمسة عشر: هناك هوة كبيرة بين علم الصوتيات الحديث وبين المنتسبين إلى التجويد، نتيجة الأسس المختلفة التي يقوم عليها علم الصوتيات، ونتيجة تباين وتغاير المفاهيم والمصطلحات والمنطلقات بين العلمين وعليه لا بد من ظهور دراسات جادة تحاول تقريب وجهات النظر بين العلمين وتذليل الصعوبات في محاولة للتسهيل على المنتسبين إلى علم التجويد الاستفادة قدر الإمكان من علم الصوتيات الحديث.

قائمة المصادر المراجع

القرآن الكريم

1) ابن البناء، الحسن بن أحمد، بيان العيوب التي يجب أن يجتنبها القراء، دار عمّار- عمّان، ط1 سنة1421هـ=2001م، تحقيق: د. غانم قدوري حمد.

2) ابن الجزري، شمس الدين محمد بن محمد بن محمد، التمهيد في علم التجويد، دار الكتب العلمية- بيروت، (بلا.ت).

3) ابن القاصح، علي بن عثمان، سراج القارئ المبتدئ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط3، سنة 1373هـ-1954م.

4) ابن القاصح، علي بن عثمان، مصطلح الإشارات في القراءات الزوائد المروية عن الثقات، رسالة ماجستير غير منشورة، تحقيق: أحمد القضاة، (بلا.ت).

5) ابن القباقبي، محمد بن خليل، إيضاح الرموز ومفتاح الكنوز في القراءات الأربع عشرة، رسالة دكتوراه غير منشورة، تحقيق: أحمد شكري.

6) ابن الناظم، أحمد بن محمد بن الجزري، شرح طيبة النشر، (بلا.ت).

7) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر- بيروت، (بلا.ت).

8) أبو سكين، عبد الحميد محمد، دراسات في التجويد والأصوات اللغوية، مطبعة الأمانة- مصر، سنة 1404هـ-1983.

9) أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل، إبراز المعاني من حرز الأماني، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، سنة 1413هـ.

10) آل البيت، مؤسسة، الفهرس الشامل للتراث العربي والإسلامي المخطوط، مخطوطات التجويد.

11) الأنصاري، زكريا بن محمد، شرح المقدمة الجزرية، مؤسسة مناهل العرفان- بيروت، ومكتبة الغزالي- دمشق، ط2 سنة 1411هـ-1990.

12) الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة، سنن الترمذي، (بلا.ت).

13) الحلبي، طاهر بن غلبون، التذكرة في القراءات الثمان، الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن- جدة، ط1 سنة 1412هـ-1991م.

14) حمد، غانم قدوري، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، مطبعة الخلود- بغداد، سنة 1406هـ-1986م.

15) حمد، غانم قدوري، علم التجويد دراسة صوتية ميسرة، مطبعة أسعد- بغداد، ط1 سنة 1408هـ-1988م.

16) الحموي، أحمد بن عمر بن أبي الرضا، القواعد والإشارات في أصول القراءات، دار القلم- دمشق ط1 سنة 1406هـ-1986م.

17) الداني، أبو عمرو عثمان بن سعيد، التحديد في الإتقان والتجويد، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط1، سنة 1407هـ-1988م.

18) الدركزلي، حسن بن إسماعيل، خلاصة العجالة في بيان مراد الرسالة، مخطوط في مكتبة المتحف العراقي، بغداد.

19) الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، البراعم للإنتاج الثقافي.

20) الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن الأندلسي، مختصر العين من عالم الكتب، بيروت، ط1، سنة 1417هـ-1996م .

21) الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الجبل.

22) السعيدي، علي بن جعفر، التنبيه على اللحن الجلي واللحن الخفي، مجلة المجمع العراقي، (بلا.ت).

23) سيبويه، عمرو بن عثمان، الكتاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة، سنة 1975م.

24) الشاطبي، القاسم بن فيرُه، حرز الأماني ووجه التهاني، دار الكتاب النفيس، ط1 سنة 1407هـ-1987م.

25) الشيرازي، نصر بن علي، الموضح في وجوه القراءات وعللها، الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم- جدة، ط1 سنة 1414هـ-1993م. تحقيق: د. عمر حمدان الكبيسي.

26) الصفاقسي، ولي الله سيدي علي النوري، غيث النفع في القراءات السبع، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط3 سنة 1373هـ-1954م.

27) الطبري، أبو معشر عبد الكريم بن عبد الصمد، التلخيص في القراءات الثمان، ط1 سنة 1412هـ-1992م.

28) غانم قدوري الحمد، شرح المقدمة الجزرية يجمع بين التراث العربي القديم والدرس الصوتي الحديث، الطبعة الأولى 2007 مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، جدة.

29) غاية النهاية في طبقات القراء للإمام شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد بن محمد بن الجزري طبعة دار الكتب العلمية سنة 1977 بيروت لبنان.

30) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، دار الرشيد للنشر- بغداد، ومطابع الرسالة- الكويت، سنة 1400هـ-1980.

31) الفنيسان، د. سعود بن عبد الله، حكم القراءة بالتغني والتجويد، مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، السنة الثانية، العدد السادس، 1411هـ.

32) الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، دار الفكر- بيروت، سنة 1403هـ-1983م.

33) القاري، ملا علي بن سلطان، المنح الفكرية على متن الجزرية، المطبعة اليمنية- مصر سنة 1322هـ.

34) القسطلاني، أحمد بن محمد بن أبي بكر، لطائف الإشارات لفنون القراءات، لجنة إحياء التراث الإسلامي- القاهرة سنة 1392هـ-1972.

35) القيسي، مكي بن أبي طالب، الرعاية التجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، دمشق، سنة 1393هـ-1973م. تحقيق: د. أحمد حسن فرحات.

36) مالك بن أنس، الموطأ، دار النفائس- بيروت، ط6 سنة 1402هـ-1982م.

37) المرادي، الحسن بن قاسم، المفيد في شرح عمدة المجيد في النظم والتجويد، مكتبة المنار- الزرقاء سنة 1407هـ-1987م. تحقيق: د. علي حسين البواب.

38) المرصفي، عبد الفتاح السيد عجمي، هداية القاري إلى تجويد كلام الباري، السعودية، ط1 سنة 1402هـ-1982

39) المرعشي، محمد بن أبي بكر، جهد المقل، رسالة دكتوراه غير منشورة. تحقيق: د. سالم قدوري حمد.

40) النسائي، أحمد بن علي بن شعيب، السنن، دار الريان للتراث- القاهرة. (بلا.ت).

41) النووي، يحيى بن شرف الدين، شرح صحيح مسلم، مؤسسة مناهل العرفان- بيروت، ومكتبة الغزالي- دمشق. (بلا.ت).

42) النيسابوي، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، مؤسسة مناهل العرفان- بيروت. (بلا.ت).